**في المسيرة العلمية، سؤال البدايات والنهايات**

**عمر بالهادي**

معالي رئيس المجمع،

زميلاتي وزملائي الأفاضل،

أيها الضيوف الكرام،

أنه لشرف عظيم أن أقف اليوم أمامكم، في هذا البيت الموقر-بيت الحكمة. بهذه المناسبة، أعبر عن جزيل الشكر والامتنان للزملاء الذين منحوني الثقة ومكنوني من الشعور بنخوة الاعتزاز بالانتماء لجمعكم الكريم، متمنيا ان أكون في مستوى ثقتهم.

يصعب علي الحديث عن نفسي، فلم أتعود ذلك ولا أرومه، ولعلي في هذه الكلمة الوجيزة أتمكن من تقديم البعض منها، أزعم أنها هامة وقد أكون مخطأ في ذلك. أتذكر في هذه المناسبة سؤالا مزدوجا طرحه علي طالب لي: **ماذا أضافت لك الجغرافيا وماذا أضفت إليها**؟ ولعلي في هذه الكلمة أحاول الإجابة باقتضاب شديد.

1. **لماذا اخترت الجغرافيا؟** لقد كنت في المرحلة الثانية من التعليم الثانوي محبا للعلوم وشغوفا بالرياضيات، وفي نفس الوقت ميالا إلى الإنسانيات والأدب، فوجدت في الجغرافيا مسلكا يؤلف بين قطبي المعادلة، وازداد اقتناعي بذلك فيما بعد في الجامعة، بعد فترة من التردد، وفي المسيرة المهنية عند الاحتكاك بالاختصاصات الأخرى.
2. **التوسع التدريجي لحقل الاهتمام**: انطلقت مسيرتي الأكاديمية من المحلي، تمثلت في دراسة الصناعة والتحضر بحيي جبل جلود وسيدي فتح الله جنوب تونس لنيل شهادة الكفاءة في البحث. وفي دكتوراه المرحلة الثالثة كان المبحث قطاعيا من خلال دراسة "النقل الحديدي وتنظيم المجال بالبلاد التونسية" (1977، نشرت سنة 1980). اما دكتوراه الدولة (1989، نشرت سنة 1992)، فقد تناولت "المجال والمجتمع في تونس منذ الاستقلال" من خلال ثلاثية التنظيم المجالي والتنمية والتهيئة الترابية ابرزت فيها البعد المجالي للمجتمع والاقتصاد والسياسة والتبعات الناجمة.
3. **ضرورة التكميم في خدمة التوصيف**: يعد التكميم ضرورة لفهم الواقع المعقد وتوصيفه بدقة دون أن يكون هدفا في حد ذاته، خلافا لما يعتقده البعض من هذا التوجه أو ذاك. وقد أدى بي هذا الاقتناع إلى العمل على التمكن من وسائل التحليل الكمي عموما والتحليل المجالي خاصة وتدريسها منذ الثمانينات من ذلك علم الإحصاء وتحليل المعطيات (كتاب 2010) والتحليل المجالي والمناهج (كتاب 1978) والإعلامية (التطبيقية) وذلك قبل أن يقع ادراجها في الجامعة في إطار التجديد الجامعي. كيف يمكن دراسة الشبكات بشكل علمي من حيث هي تنظيم مجالي؟ لم أجد الإجابة في المدرسة الفرنكوفونية وكان المنطلق لاكتشاف الجغرافيا الانجلوسكسونية التي تختلف عن تلك التي درستها في الجامعة. مكنني ذلك من اعتماد الطوبولوجيا لدراسة الشبكات والأدفاق والتبادل وتوج بنشر كتاب سنة 2014 بالإضافة إلى عدة مقالات منشورة في الغرض. كما فتح لي باب الجغرافيا الكمية والجغرافيا الجديدة، فكان للتحليل المجالي مكانة هامة وللنمذجه المجالية نصيب حيث تم ادراج النماذج في التكوين وتوج بكتاب نشر سنة 2012.
4. **ضرورة التنوع المنهجي**: وقفت خلال هذه المسيرة على ضرورة التنوع المنهجي لدراسة مختلف أوجه الظاهرة دون الوقوع في التناقض. فكل مقاربة تحمل رؤية محددة غالبا ما تكون خفية، وأحادية المنهج تجعلنا نقع في الانحراف الأيديولوجي أو الانحياز المنهجي دون وعي منا، وهو ما جعلني استعمل غالبا مناهج مختلفة.
5. **في علاقة المادية المجالية والمجتمع**: خلافا لما يعتقده البعض أو يدعيه، لا يمكن الفصل بين المجتمع ومجاله، فهما في علاقة تلازمية بمثابة الوجه والقفا، لا يمكن فصلهما الا لضرورة التحليل أو التخصص. فالمجال صورة وتصور وتمثل ونتيجة وناتج (مادي وثقافي)، ولكنه في نفس الوقت يخضع لقوانين وآليات مجالية خاصة به تسهم بدورها في تنظيم المجتمع في علاقة جدلية (او تفاعلية) معقدة، تحدد كيفية وأشكال التنظيم المجالي مثل التركز والتجمع والانتشار والتوزع والتوزيع والتراتب والتقسيم الترابي والجاذبية والتفاعل المجالي والتباعد والجوار والارتباط المجالي الذاتي... وقد حاولت ابراز هذه القوانين المجالية في العديد من الاعمال في سعي للتوفيق بين نظريتين او نظرتين متناقضتين، تقتضي كل منها تغييب عنصر منها.
6. **النظرية والتطبيق وضرورة التداول والتناوب**: لقد كانت لنا تجربة عملية ثرية أتاحت لنا الفرصة للعمل الميداني المباشر لإشكاليات التنمية والتهيئة الترابية وذلك من خلال العمل في إقليم تونس (وكالة التعمير لتونس الكبرى) لمدة أربع سنوات والمساهمة بعد ذلك في العديد من الدراسات الميدانية في تونس وفي الخارج، وكانت الحصيلة ثلاث كتب وعدة مقالات ودراسات وتقارير. فالتكوين النظري، لا يكتمل ولا ينضج الا بالجانب التطبيقي وهو ما يحتم ادراج التداول والتناوب في نظامنا التكويني والبحثي مما يساهم في تعديل الرؤية للواقع في الاتجاهين والعمل على الملائمة بين النظرية والواقع. هذا ما أدى بي إلى العمل على ادخال بعض المسائل النظرية والمنهجية في التكوين مثل المنهجية وابستمولوجية الجغرافيا لتلافي النقص في هذا الباب، وكانت لي عدة مقالات وثلاث كتب (1998، 2017 و2018).
7. **أولوية الجغرافيا الاجتماعية-السياسية**: لم أكن مرتاحا منذ البداية تجاه المدرسة التقليدية لما يطغي عليها أحيانا الوصف والتوصيف والسرد وعدم الدقة والحتمية (الطبيعية والتاريخية) في تفسير الظواهر وهيمنة الجغرافيا الإقليمية التي تعطي دورا محددا للطبيعة والتاريخ فكان توجهي نحو تحميل الانسان، كفرد وفاعل ومجموعة، مسؤوليته في تنظيم مجاله (دون إغفال دور الطبيعة والتاريخ) مما جعلني أحبذ أكثر الجغرافيا الاجتماعية-السياسية التي تضع الانسان في الواجهة.
8. **الحصيلة الأكاديمية**: يمكن تلخيص الحصيلة الأكاديمية لهذه المسيرة في كوني أستاذ متميز بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قمت بنشر 12 كتابا، اشرفت على كتابين، وساهمت في 9 كتب جماعية، كما نشرت 120 مقالا وقمت بـ 100 مداخلة بالإضافة إلى المشاركة في 5 دراسات و10 تقارير.

شغلت خطة رئيس قسم الجغرافيا ورئيس لجنة الدكتوراه والتأهيل والماجستير، عضو بالمجلس العلمي للكلية، وعضو بمجلس الجامعة. اشرفت على 27 بحثا، منها 13 رسالة دكتوراه وشاركت في 88 لجنة مناقشة. كما انشأت مخبر بحث "الديناميات والتخطيط المجالي" (2000-2004) وكنت وراء بعث أربع فرق بحثية بالكلية وفريق بمركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية.

شغلت خطة رئيس تحرير ثم مدير "المجلة التونسية للجغرافيا"، عضو في لجنة النشر لخمس مجلات وفي لجنة تقييم عدة مجلات علمية في تونس والخارج. وكنت من مؤسسي جمعية الجغرافيين التونسيين سنة 1978 وكنت من ضمن هيئتها المديرة لمدة سنوات ومن بين الذين أشرفوا على اصدار مجلتها منذ 1979 وكنت من اقترح الاسم "الجغرافيا والتنمية" للتركيز على التوجه العملي للاختصاص.

لعلي، بهذه الكلمة الوجيزة، أكون قد توصلت الى رسم بعض معالم مسيرة علمية أعتز بها، ولو كنت أتمنى أن تكون أثرى لو توفرت ظروفا أحسن كما هو الشأن في دول أخرى، وهذه قصة اخرى. وقد جمعت كل الاعمال المنشورة والمداخلات منذ 1990 (ما قبل هذا التاريخ يستدعي إعادة رقن النصوص)، باستثناء الكتب، لأسباب تقنية بحتة (سعة الموقع)، في موقع شخصي منذ 2003 وهو: [http://amorbelhedi.unblog.fr](http://amorbelhedi.unblog.fr))

أخيرا، أجدد لكم امتناني على ثقتكم وأشكركم على الاهتمام، أتمنى أن أكون في مستواها وفي مستوى الانتماء لجمعكم الكريم.

تونس، 28 سبتمبر 2019